توبياس

قصة بقلم توماس مان

ترجمة عائدة مطرجي

يدعى احد الشوارع المتعرجة المتفرعة من شارع « المحطة » والمؤدية الى قلب المدينة بـ« الطريق الرمادي ». ففي منتصف هذا الشارع تقريباً ، من الجهة اليمنى باتجاه النهر ، يرتفع بيت ضيق كئيب اللون لا يميزه شيء عن سواه من البيوت المجاورة . وفي اسفل البيت دكان سمان تباع فيه احذية من الكاوتشوك وزيت الخروع ، وبعد ان تقطع الممر الذي ينفتح على ساحة تلهو فيها القطط ، يستقبلك سلم خشبي مهترىء الادراج تفوح منه رائحة فقر لا يمكن التعبير عنها ، فتصعد منه الى الطوابق العليا . ففي الطابق الاول شمالا يقطن نجار ، وتسكنه يميناً قابلة . اما الطابق الثاني فيحتله ، شمالا ، مرقع احذية ، ويميناً ، امرأة يعلو صوتها بالغناء كلما سمعت وقع اقدام على السلم . واما الطابق الثالث ، من الناحية الشمالية ، فخال من السكان ، اما يميناً فيسكنه رجل يدعى « مندرنيكل » ويلقب بتوبياس . ولهذا الرجل قصة يجب ان تروى .

يتكشف مندرنيكل عن مظهر أخاذ غريب مضحك . فعندما يذهب الى النزهة مثلا ، ويصعد شبحه الهزيل الطريق متكئاً على عصاه ، يكون متشحاً بالسواد من رأسه حتى قدميه . فهو يغطي رأسه بقبعة قديمة الطراز مجعدة وخشنة ، ويلبس « ردنجوتاً » ضيقاً ، اكل الدهر عليه فالتمع ، و« بنطلوناً » مهترئاً ، مهدباً وقصيراً الى حد تبدو معه ساق حذائه المطاط . والحق ان ثيابه منظفة بعناية ، ورقبته المتكشفة تبدو اكثر طولا كلما برزت من القبة المنخفضة .

وكان شعره الرمادي املس مرسلا على صدغيه ، وكان طرف القبعة العريض يلقي ظلا على الوجه الحليق ، الممتقع ، الاجوف الوجنتين ، ذي العينين المحتقنتين بالدم ، والنظرة التي قلما ارتفعت عن الارض . وكانت ثنيتان عميقتان تمتدان من الانف حتى اوصال الشفتين المتدليتين .

ولا يخرج مندرنيكل من البيت الا في الندرى ، ولهذا اسباب . فانه فور ظهوره في الشارع يتجمع حوله عدد كبير من الاولاد يرافقونه بعض الطريق ويضحكون عليه ويهتفون مغنين : « هو ! هو ! توبياس » واحياناً كانوا يشدون اردانه ، بينما يخرج الناس على عتبات الابواب فيضحكون ساخرين . بيد ان توبياس كان يمر دون ان يدافع عن نفسه ، ملقياً حوله نظرات مذعورة ، رافعاً بشدة كتفيه ، ماداً برأسه الى الامام ، كانما هو رجل يركض ، بلا مظلة ، تحت وابل من المطر . وبالرغم من انهم كانوا يضحكون في وجهه ، فقد كان يسلم هنا وهناك ، على هذا اوذاك ، من اولئك المتحصنين على الابواب ، بادب ملؤه الانكسار .

وفيما بعد ، اذ يكف الاولاد عن اللحاق به ، وفي الشوارع التي يبدو فيها مجهولاً ، ويلتفت قليل من الناس لدى مروره ، تظل هيئة توبياس على حالتها لا تتبدل : انه يظل ينظر بذعر حوله ويتقدم منحني الظهر ، كما لو انه كان يشعر بوطأة الف نظرة ساخرة تثقل عليه . وعندما كان يرفع عينيه عن الارض ، مرتبكاً خجلا ، كان يلاحظ عليه — وهذا حادث غريب — انه كان عاجزاً عن ان يحدد نظره بهدوء وجدّ على اي من الكائنات او الاشياء . ومهما يكن ذلك فريداً ، فكأن موهبة التفكير الطبيعية تنقصه ، هذه الموهبة التي تسجل الحقيقة بواسطة الاشخاص وتسمح لكل فرد ان يتأمل عالم المظاهر . ولقد كان توبياس يشعر بان كل مظهر كان يأسره في الواقع ، وان نظراته الهاربة كانت تصدف عن الرجال والاشياء لتلتصق بالارض .

ترى ما شأن هذا الرجل المتزل دائماً ، والذي يبدو تعيساً الى ابعد الحدود ؟ ان لباسه البورجوازي ، بالاضافة الى حركة اليد المقصودة وهي تلامس الذقن ، يجعلنا نفرض انه لا ينتمي الى الطبقة الاجتماعية التي يعيش فيها . والله يعلم اية مماكسات قد عرف ! فوجهه هو وجه من صفعته الحياة وهي ترسل ضحكة ازدراء . بيد انه في الممكن جداً ان يكون ، ومن غير ان يتعرف على تقلبات كثيرة ، غير جدير بالوجود ، وان مظهره الابله الذي يبدو عليه الارهاق يعطي الشعور المؤسف بان الطبيعة قد حرمته نصيب التوازن والقوة والحيوية الذي يمكنه من ان يعيش مرفوع الرأس .

فاذا ما صعد الى المدينة متكئاً على عصاه السوداء ، عاد بسرعة الى منزله ، فاستقبلته في « الشارع الرمادي » هتافات الاولاد . ويصعد الادراج الملأى بروائح العفن ليدخل غرفته الخالية من كل زينة الا من طاولة امبيرية ذات قضبان معدنية ثقيلة تتمتع وحدها ببعض قيمة وجمال . وقد كان بالقرب من النافذة التي كان الجدار الجاني للبيت المجاور يحجب دونها الرؤية ، اناء للزهر مملوء بالتراب ولكن لا ينبت فيه شيء . وكان توبياس يتقدم احياناً ويتأمل اناء الزهر ويستنشق رائحة الارض العارية . وكانت تلتصق بهذه الغرفة حجرة اخرى للنامة معتمة . وعندما كان توبياس يرجع الى مسكنه كان يضع قبعته وعصاه على الطاولة ويجلس على الاريكة المغطاة بقماش اخضر له رائحة الغبار ، ويغمر ذقنه بيده فيرفع حاجبيه ويخفض عينيه على الارض فيبدو ان لا مشاغل له اخرى في هذه الدنيا .

وانه لمن العسير جداً ان نطلق حكماً ما على طبع مندرنيكل . على ان الحادث الذي سنصفه ينطق في صالحه .

خرج هذا الرجل الغريب من بيته ذات يوم ، تلحق به كالعادة عصابة من الاولاد تتبعه بضحكاتها وسخرياتها ، فتعثر ولد في العاشرة من عمره بقدم رفيق له وسقط على الارض سقطة عنيفة جداً ، حتى ان الدم تدفق من انفه وجبينه ، وظل ممدداً على الارض وهو يبكي . وسرعان ما التفت توبياس واندفع نحو الطفل فانحنى عليه ، وبصوت ناعم ومرتجف عبر عن عطفه قائلا :

— مسكين انت يا صغير ! هل اصابك مكروه ؟ ان دمك يسيل ، انظروا الدم يقطر من جبينه . نعم ، نعم انك تعيس جدا وانت ملقى هكذا على الارض ، ان به ألماً شديداً يجعله يبكي ، هذا الطفل المسكين . كم انا اشفق عليه ! لقد كانت غلطتك . ولكني ساضمد جبينك بمنديلي . هكذا . هكذا . والآن . كن شجاعاً وانهض .

وبعد ان قام بضماد للطفل سريع بمنديله الخاص ، انهضه بعناية ومضى . على ان هيئته ووجهه كانا يتكشفان في هذه اللحظة عن معنى جديد يختلف اختلافاً واضحاً عن هيئته المألوفة . كان يمشي بخطى ثابتة منتصباً باستقامة .

وتحت « ردنجوته » الضيق ، كان صدره يتنفس بعمق ، واتسعت عيناه ، وسال فيهما بريق ، واصبحتا تنظران باطمئنان الى الرجال والاشياء ، بينما كان يرتسم حول فمه خط من السعادة المؤلمة .

ونتج عن هذا الحادث ان سخرية سكان « الطريق الرمادي » قد تناقصت قليلا . الا انه بعد مضي وقت قصير نسي مسلكه الغريب ، وعادت عصابة من الاولاد الاصحاء والمرتاحين والجفاة ، يغنون بملء اصواتهم وراء هذا الرجل المنحني : هو ! هو ! توبياس !

وفي ذات صباح مشمس ، خرج مندرنيكل من البيت في الساعة الحادية عشرة فقطع المدينة كلها وارتقى « الروكنبرغ » ، هذه الرابية التي تكوّن في ساعات الاصيل اجمل نزهات المدينة . ولكن الطقس الربيعي الساحر كان قد جذب في هذه الساعة الصباحية بعض السيارات وبعض المشاة . وتحت شجرة الممر الرئيسي العريض ، وقف رجل رفع بعيداً عنه كلب صيد صغيراً يعرضه على المارة بنيّة ان يبيعهم اياه . لقد كان حيواناً اصفر ضعيفاً ، في الشهر الرابع من عمره تقريباً ، تحيط بعينيه دائرة مسودة . وكانت اذناه سوداوين .

وحين شاهده توبياس ، توقف وامرّ مراراً عديدة يده على ذقنه ، ونظر نظرة تفكير الى البائع والى الكلب الصغير الذي كان يبصبص بذنبه برشاقة ، ثم تابع سيره وقد اسند فمه على رأس عصاه ، ودار ثلاث مرات حول الشجرة ، ثم تقدم اخيراً منه ، ومن غير ان يتوقف عن التحديق بالحيوان . سأل بصوت مرتفع وسريع :

— كم يساوي هذا الكلب ؟

فاجابه الآخر :

— عشرة ماركات .

وصمت توبياس لحظة ثم ردّد بقلق :

— عشرة ماركات ؟

فأجاب الرجل : — نعم .

واذ ذاك اخرج توبياس من جيبه كيساً جلدياً اسود واخذ منه ورقة بخمسة ماركات وورقتين بثلاثة ، وورقة باثنين . ثم مد يده سريعاً بالنقود الى البائع ، وتناول الزمام . ثم سار مسرعاً ، منحنياً على عادته ، وهو يلقي حوله نظرات مرتاعة لان اناساً كانوا قد شهدوا البيع فاخذوا يضحكون . ومضى يجر خلفه الكلب الذي كان يرسل صرخات صغيرة ويتخبط . وقد تمرد الكلب عن السير طوال الطريق وكان يثبت بالارض قدميه الاماميتين ويرفع نحو معلمه الجديد نظرات ملؤها تساؤل قلق . ولكن توبياس مضى يشد الزمام بصمت وقوة حتى بلغ المدينة الواطئة سعيداً .

ولقد انفجرت هتافات الأطفال في « الشارع الرمادي » عندما اطل توبياس مع كلبه ، ولكنه سارع يأخذ الكلب بين ذراعيه وانحنى عليه ، وبالرغم من ان الاولاد الخبثاء كانوا يتشبثون بأردانه فقد تسلل توبياس وسط الضحكات والسخريات ورقي السلم الى غرفته .

واذ وصل ، اجلس على البلاط الحيوان الذي لم ينفك عن الانين ، وامر عليه يده بحنان وقال بلهجة لطيفة :

— عجباً ، عجباً ، ليس لك ان تخافني ، ايها الحيوان الابله ! ان هذا غير ضروري !

وهناك تناول من درج الطاولة صحفة ملأى باللحم والبطاطا ، فرمى فسماً منها الى الكلب الذي كف عن الانين ، والتهم وقمته وهو يطقطق بلسانه ويبصبص بذنبه .

وقال توبياس :

— سوف تدعى بعد اليوم « اسو » : هل فهمتني : اسو ؟ ان جرس هذا الاسم يسهل حفظه .

ثم دله على الطريق امامه ، وصاح بلهجة الامر : « إسو » ، وأقبل الكلب راكضاً وقد كان يتوقع ان يقدم له نصيب آخر من الطعام ، فأمسكه توبياس من جنبيه بدلال وبحركة مؤيدة قال له :

— حسناً يا صديقي ، اني اهنئك .

ثم تراجع بعض الخطوات واشار الى الارض وامر من جديد : « إسو » فقفز الحيوان وقد تحمس واخذ يلحس حذاء معلمه .

وأعاد توبياس هذه التمارين احدى عشرة مرة ، وقد وجد في اعطاء الاوامر لذة لا توصف ، ولكن الكلب بدأ يظهر في نهاية الامر علامات الضجر ، وبدا عليه انه بحاجة الى الراحة ، فتمدد بوضع كلاب الصيد ، وقرب رجليه الاماميتين الطويلتين الناعمتين ومددهما امامه فصاح به توبياس :

— مرة اخرى ، يا إسو .

ولكن اسو اسند رأسه على قدميه ولم يتقدم

فقال له توبياس بصوت ملؤه تهديد صامت ، ولكنه تهديد مخيف :

— أطعني وإلا فستعلم انه ليس من الخير لك ان تثير غضبي .

وإذ بدأ الحيوان بتحريك ذيله ، ثارت في مندرنيكل سورة غضب جنونية لا حدود لها .. فتناول عصاه السوداء واخذ اسو من جلدة رقبته ، فأخذ يئنّ ويصيح . وكان توبياس ، وهو في غضبه المغيظ ، قد فقد صوابه ، فأخذ يردد بصوت لاهث :

— ماذا ؟ كيف لا تطيعني ؟ هل تجرؤ على ان لا تطيع ؟

وانتهى بان رمى عصاه ووضع على الارض الكلب الذي كان يئن واخذ يتنفس بعمق ، ويداه خلف ظهره وهو يذرع الغرفة طولاً وعرضاً بخطوات كبيرة بينما ظل يرسل الى اسو نظرة تكبر وغضب . واستمرت نزهته بعض الوقت ، ثم توقف قرب الكلب الممدد على ظهره ، المحرك رجليه الاماميتين كأنه يسترحم ، وتكتف توبياس ووضع يديه على صدره ، وصرخ بلهجة ونظرة باردتين مخيفتين قاسيتين كأنهما نظرات نابوليون تنتهر الفرقة التي أفقدته نسره في المعركة :

— كيف تفعل ذلك ان كان يحق لي ان اسألك هذا السؤال ؟

واذ كان الكلب سعيداً بهذا التقرب ، فقد زحف الى معلمه اكثر من قبل والتصق بساقه ورفع اليه عينين براقتين تسترحمان .

وظل توبياس ، فترة قصيرة ، ينظر بصمت ومن عل الى المخلوق المتواضع ، واذ شعر بحرارة الجسم الملتصق بساقه رفع اسو اليه ، وقال له :

— اذهب ، فأكون بك رحيماً .

ولكن عندما أخذ الحيوان يلحس وجه معلمه تبدلت هيئة توبياس واتسمت بالحنو والكآبة ، فشد اليه الحيوان بحنو اليم واغرورقت عيناه بالدموع ، ثم ردد مرات عديدة دون ان يتم الجملة حتى نهايتها وبصوت محنوق :

— اترى ؟ انك انت صديقي الوحيد ... الوحيد ...

ثم مدد اسو بتأن على الاريكة وجلس بالقرب منه واسند ذقنه الى يده واخذ يتأمله بهدوء وصمت .

★

بعد هذا اليوم اصبح خروج توبياس من البيت أندر من قبل ، لانه لم يكن لديه اية رغبة في ان يظهر امام الجمهور مع اسو . وكان يخص الكلب بعنايته من الصباح حتى المساء ، وكان شغله الوحيد ان يطعمه وان يلقي عليه الاوامر وان يوبخه وان يخاطبه وكأنه انسان . ولكن اسو لم يكن يستجيب دائماً لرضاه . وكان حين يستلقي على الاريكة بالقرب من سيده ويأخذه النعاس بسبب نقص في الهواء وفي الحرية، وينظر الى سيده نظرة كئيبة ، كان توبياس يستغرق في غمرة السرور ، فيجلس جلسة هدوء وانشراح ، ويداعب برفق صلب اسو وهو يقول :

— انك تنظر الي نظرة حزينة يا صديقي؟ اجل ، أجل ، ان العالم حزين وسوف تخبر ذلك انت ايضاً وان تكن صغيراً .

ولكن عندما كان الحيوان يعدو حول الغرفة، في هوس اللعب والمطاردة ويداعب حذاء يلقى هناك ، ويقفز على الكراسي، ويتدحرج كالكرة ، وهو فريسة فرح جنوني ، كان توبياس يتابع حركاته بنظرة مستنكرة وبابتسامة غضبى مغيظة حتى المحظة التي كان يدعوه فيها اليه بلهجة حقى وينتهره قائلاً :

— كفاك مبالغة ، فليس هناك من داع للرقص والدوران .

وقد حدث مرة ان هرب اسو من الغرفة وقفز السلم بقفزة واحدة، وهبط الى الشارع فلاحق قطة، وقد فاض بالفرح. ثم اخذ يلعب مع الاولاد. ولكن عندما ظهر توبياس مكفهر الوجه ، تعالى من حوله تصفيق الناس وضحكاتهم في الطريق . وحدث آنذاك شيء حزين : لقد هرب الكلب مطلقاً لساقيه العنان ، بعيداً عن معلمه . وفي ذلك اليوم ضربه اسو ضرباً طويلاً قاسياً .

وفي يوم آخر ، وقد كان الكلب يخصه منذ بضعة اسابيع ، اخذ توبياس من درج الطاولة قطعة خبز لطعام اسو ثم مضى يقطعها بالسكين الكبير ذي القبضة العظيمة الذي كان يستعمل عادة لهذه الغاية، ويرمي بالفتات أرضاً. ولكن الحيوان ، وقد اخذه هوس من الجوع والنزق ، اندفع على السكين الذي كان توبياس يقلبه تقليباً اخرق، فاذا هو يصاب بطعنة في كتفه الايسر، فيفيض بالدم ويتدحرج على الارض .

وذعر توبياس فترك كل شيء وانحنى على الجريح . وفجأة تغيرت معاني وجهه واضاء قسماته شعاع خاطف من العزاء والسعادة . وحمل الكلب ، الذي كان يئن الى الاريكة بتحفظ ، ولا يستطيع احد ان يتصور بأي انكار للذات اخذ يغدق عنايته على المريض. فقد كان لا يبرحه طول النهار وكان يمدده في الليل على سريره الخاص ويغسله ويضمد جراحه ويدلله ويعزيه ويتلهف عليه بفرح ورعاية لا يكلان .

وكان يقول له :

— هل انت موجع ؟ نعم ، نعم تتألم جداً ياحيواني المسكين، ولكن اسكت. علينا ان نتحمل .

وبينما كان ينطق بهذه الكلمات كان وجهه يعبر عن الهدوء وعن سعادة كئيبة . ولكن بينما كان اسو يستعيد قوته وبهجته ويشفى ، كان توبياس يظهر مضطرباً ومستاء . وكان يستشعر الرضى بان لا يعتني بالجرح ، ولم تكن شفقته تظهر بعد الا بالكلمات والتربيتات . غير ان اسو الذي كان قوي التركيب ، كان يمشي الى الشفاء بخطى ثابتة ، فعاد يدور في الغرفة . وذات يوم بعد ان ولغ حصته من الحليب والخبز الابيض قفز الى المقعد وقد استعاد كل قواه واخذ يقفز في الغرفتين وهو يرسل نبحات بهجة . وراح حيوان الماضي الذي لا يُكبح يشد غطاء السرير ويقذف امامه قطعة من البطاطا ويتدحرج من الفرح .

وكان توبياس واقفاً على النافذة قرب اناء الزهر ، وخلل شعره الذي كان ينزل على صدغيه كان يمر بحركة آلية يداً طويلة وهزيلة تخرج من كمه المخطط. وكان شبحه ينعكس اسود غريباً على حائط البيت المجاور الرمادي . وكان وجهه شديد الشحوب، متقلصاً من الحزن . وبنظرة مرتبكة حسودة وخبيثة كان يتابع قفزات اسو . وفجأة انتصب وهجم عليه وأوقفه، ثم اخذه بين يديه على مهل ، وبدأ يقول له :

— يا حيواني الصغير ..

على ان اسو ، وقد فك عنه قيده ولم يعد يقبل ان يعامل هذه المعاملة طويلا بعد ، عض بفرح اليد الي ارادت ان تربت على ظهره ، وانفلت من الضمة ، وقفز على الارض وهو يقوم بقفزة جانبية هازئة ، ونبح ثم هرب جذلاً .

وظل توبياس واقفاً ، ويداه تتأرجحان وجسمه منحن الى الامام وشفتاه مشدودتان ، وجفونه ترتعش بحزن في محجريهما . وفجأة انبعث بريق من شيء لماع في يده، فخر الكلب على الارض، وقد اصيب بجرح في كتفه الايمن .

وبعد لحظة ، كان ممدداً على المقعد ، وتوبياس يحنو بالقرب منه ، ويجفف بمنديله الدم المتدفق من الجرح وهو يتمتم :

— يا حيواني المسكين، يا حيواني المسكين. كم يبدو كل شيء حزيناً. كم نحن تعيسان ، نحن الاثنين ! هل انت موجع ؟ نعم ، نعم ، انني اعلم ، انك تتألم . وها انت ذا ممدد بالقرب مني ، بصورة تثير الشفقة ! ولكني انا قريب منك . سأعنى بك . فباجل منديل لي سوف ...

ولكن اسو كان ممدداً هناك يحشرج، وكانت عيناه المظلمتان المتسائلتان المتجهتان نحو معلمه تعبران عن الحيرة والبراءة والالم ثم مدد قليلا رجليه ومات ...

وظل توبياس متحجراً ، وهو على وضعه نفسه، وكان قد الصق وجنته بجسم اسو ، وأخذ يبكي بمرارة .

نقلتها عن الفرنسية

عائدة مطرجي